الفصل الأول

عمن ستكتب ؟

فليس النبي إنسانا من العظماء يقرأ تاريخه بالفكر معه المنطق ، ومع المنطق الشك ، ثم يدرس بكل ذلك على أصول الطبيعة البشرية العامة ،ولكنه إنسان نجمي يقرأ بمثل (التلسكوب) في الدقة ، معه العلم ، ومع العلم الإيمان ، ثم يدرس بكل ذلك على أصول طبيعته النورانية وحدها .

والحياة تنشئ علم التاريخ ، ولكن هذه الطريقة في درس الأنبياء -صلوات الله عليهم- تجعل التاريخ هو ينشئ علم الحياة ، فإنما النبي إشراق إلهي على الإنسانية يقومها في فلكها الأخلاقي ويجذبها إلى الكمال في نظام هو بعينه صورة لقانون الجاذبية في الكواكب .

○ مصطفى صادق الرافعي

obeikandl.com

obeikandl.com

حينما هممت بالكتابة عن محمد ﷺ، سألني صديقي : - عمن ستكتب ؟

فقلت له :- عن محمد عليه السلام.

فقال متعجبا مستنكرا :- لقد كتب الكثيرون عن محمد ، مسلمين وغير مسلمين ، منصفين ومتجنيين ، معجبين وحاقدين ، مقدرين ومدرين ، وبقى كل هؤلاء دون محمد ، فلا المنصفين والمعجبين والمقدرين زادوا محمدا ، ولا أضافوا له جلالا فوق جلاله ، ولا تقديرا إلى قدره ، ولا عظمة ' إلى عظمته .

ولا المتجنيين والحاقدين والمدرين أنقصوا من قدر محمد ، أو سلبوه شيئا أو غضوا من شأن هذا الجلال والتقدير والعظمة .

وتبقى هامة محمد دون هؤلاء وهؤلاء !

فسألته :- وهل معنى أن الكثيرين كتبوا عن محمد ألا أكتب أو يكتب عنه أحد بعد ذلك ؟

فأجاب :- نعم ، .. فماذا ستضيف أو يضيف غيرك ؟ فلم يتوقف العالم عن الحديث أو الكتابة عن محمد على مدى الألف وأربعمائة عاما ، فقد قيل كل ما يمكن أن يقال وأكثر ، وكتب كل ما يمكن أن يكتب وأكثر ، إلى الدرجة أنك لو نطقت بكلمة ((سيرة)) انصرف الذهن على الفور إلى محمد - ﷺ - ، لقد شغل محمد العالم ، وانشغل العالم به ، فلا تجدن شخصية حظيت بكل هذا الاهتمام ، ونالت كل هذا التدقيق ، وظفرت بكل هذا البحث والدرس ، إلى الدرجة أن تعرف ماذا كان يحب وماذا كان يكره ، وكيف كان يسير ، وكيف كان يضحك وماذا يغضبه وماذا يرضيه ، وماذا يحزنه ، وماذا يسعده ، ومتى كان يبتسم ، ومتى كان يضحك ... وأوصافه وسماته الخَلْقية والخُلقية ، وجميع أقواله سجلت من المحيطين به بالصوت والصورة والإيماءة والإشارة ، حتى خلجاته النفسية ومشاعره الوجدانية لم يغفلوا عنها ... فقل لي بربك ماذا ستقول بعد كل ما قيل ؟ !

وماذا ستكتب بعد كل ما كتب ؟!

وماذا ستضيف بعد بكل ما أضيف ؟!

فسألته : - وهل تعلن أننا حينما نكتب عن محمد رسول الله نضيف إليه شيئا لم يضف ، أو نكتب بشأنه شيئا لم يكتب ، أو نقول بحقه شيئا لم يقل ؟

- هذا ما أظنه ، وهذا ما أحسبه .
- لا ، ليس هذا .

فقال لي صديقي منفعلا وغاضبا :- إذن لم تكتب عن محمد ، إذا لم يكن هذا ما تقصده ؟ أم أن الأمر بالنسبة لكم معشر الكتاب مجرد تسويد عدد من الصفحات والسلام ؟

فابتسمت ابتسامه هادئة ، وطلبت من النادل أن يحضر لصديقي فنجانا من القهوة ، وسادت فترة صمت بيننا ، وحينما شرب القهوة ، وعاد إلى هدوئه ونظر إلي متحفزا ، قلت له :

- أنا إذا كنت أكتب عن محمد ، فأنا أكتب عنه كي أحد منه ، استلهمه استرشد به ، استعنم منه ، استنر به ، استهدي به ، نحن حينما نكتب عن محمد ، لا نضيف إليه شيئا بالمرة ، وإنما هو الذي يضيف إلينا ، إن عصرنا – وكل العصور – قد يطرأ عليها من فساد واعوجاج وانحراف وابتعاد عن الحق واختلاط بالباطل ، في حاجة إلى قيمة ، ومبدأ ، والقيم والمبادئ كثيرة ، ولكنه في حاجة إلى قيمة من لحم ودم وأعصاب ومشاعر وعواطف في حاجة إلى شيء مجسد يسير بين الناس يختلط بهم ، يتعاطى معهم ويتعاطون معه ، إن عصرنا – وكل العصور – ليسوا في حاجة إلى قيمة مجردة ، لا توجد إلا في الضمائر والعقول ، إن أعظم ما حققه محمد – وكل ما حققه عظيم – أنه قيمة في حد ذاته ، وفي نفس الوقت هو إنسان من لحم ودم عاش على تلك الأرض مثل الملايين ، طعم مما يطعمون ، وشرب مما يشربون ، وعانى مما يعانون وتألم كما يتألمون ، وكانت تنتابه كل المشاعر والأحاسيس والأفكار ، التي

تتنابهم . ومع كل هذا هو مميز عن ملايين الملايين في كل العصور . وهو ﷺ - أحسن رد للمدين يفرقون بين العالم الواقعي وعالم المثل . ويرون ألا التقاء بينهما ، ((محمد)) نقطة أو مرحلة أو برزخ ، يمثل التقاء العالمين أو تجسيد العالمين في شخص واحد . ففيه كل ما يتصف به العالم الواقعي والإنسان الواقعي من حياة وحيوية ، ووعي بكل قضايا وأزمات ومآزق ومشكلات الواقع، وفيه كل ما يموج به عالم المثل من حب الخير والعدل والجمال ، ليس هذا فحسب . بل استطاع أن يجسد الحب والخير والعدل والجمال تجسيدا حقيقيا .

فإذا قدر للحب أن يسير على الأرض ويخاطب الناس ويخاطبونه ، فهو حب .

وإذا قدر للخير أن يوجد بين الناس يتعاطون معه ويتعاطى معهم ، فهو خير

وإذا قدر للعدل أن يسود بين الناس يؤيدهم ويتأيد بهم ، فهو عدل .

وإذا قدر للجمال أن يضوع بين الناس يباركونه ويباركهم ، فهو جمال .

فقال لي صديقي : - ألا ترى معي أنك بهذا الوصف لرسول الله أضفت عليه كثيرا من السمات المثالية ، وهذا على حساب السمات والصفات الواقعية والبشرية ... وعلى قدر علمي فالرسول نفسه كان يؤكد في كل آن وحين ، وكل مناسبة على الجانب البشري من شخصيته ؟

فقلت : الأجيال التي ارتحلت بمحمد - وكل الأجيال مرتبطة به - كانت طامحة إلى المثال أو القيمة ، والظروف التي تعرضت لها من انعدام أو ندرة ما تنشده جعل الظمأ يكاد أن يقتلها ، لذلك تواضعت آمالها ، وتضاءلت أهدافها ، وبدأت طموحاتها ، وبحثت وأجهدها البحث عن أي شيء يسد هذا الفراغ ، ويملأ هذا الخواء الذي تشعر به ، وحينما التمست محمدا ، وجدت فيه كل ما تطلبه وأكثر عثرت على كل ما تنشده وأكثر ، نالت من خلاله كل ما تتمناه وأكثر ... لقد أرضى محمد في كل تلك الأجيال - كنبي ورسول وقائد ومصلح وثائر وكأب وزوج وصديق

وبشر وإنسان – كلّ ما تحلم به ، ويقيت عند محمد ما زاد عن ذلك الأجيال ، كان بمثابة مخزون هائل وفريد ونادر مما قد تطلبه الأجيال في مستقبلها . هنا لا تلوم الأجيال أن تنظر إلي محمد كنبي وأكثر ، كرسول وأكثر ، كإنسان وأكثر ، كبشر وأكثر .

- ولكن أليس هذا – في حد ذاته – إسراف من الأجيال ، وأكاد أقول أنه خطأ لأنه أخرج صورة النبي من إطارها الصحيح ، بعد أن أضفوا ملامح ليست من ملامحها وسمات ليست من سماتها ؟
- أنا معك ، فكثير من سمات وملامح صورة النبي في الأذهان ، الأجيال هي التي قامت برسم بعض من تلك الملامح والسمات ، دفعتها إلى ذلك ظروفها وأحوالها ، فقد مرت الإنسانية – ضمن ما مرت به – بمراحل مجاعات في الطعام نالت من كيانها المادي ، – أيضا – مرت بمراحل مجاعات في القيم والمبادئ والمعايير الخلقية نالت من كيانها الروحي ، وفي مراحل المجاعة في الطعام من يقدم لك رغيفا فأنت تضفي عليه من الأوصاف والسمات ما يخرجه عن حقيقته ، كذلك من يداوي ويعالج أمراض الروح وخروج الضمير في مراحل مجاعات الروح والضمير تضفي عليه الإنسانية الكثير من الأوصاف والنعوت التي قد تخرجه عن حقيقته .

ومع كل ذلك تبقى حقيقة محمد أنه بشر نبي ورسول إنسان ، وتلك الحقيقة شاهدة وماثلة ، لا أحد ينكرها ، فقد كان الصحابة يعاملونه على ضوء من تلك الحقيقة ، – حتى أزواجه رضوان الله عليهن – فكثيرا ما يغفلن وينسين أنه نبي ، ويختلفن معه ، ويراجعنه ويعترضن عليه ، ويأتي القرآن ويأخذ برأي أحد الصحابة ، ويعرض عن رأي النبي ، ولا يتم هذا في الخفاء ، بل على رؤوس الأشهاد وفي آيات قرآنية صريحة تتلى كل آن وحين ، ويتعبد بها في الصلوات والأذكار .

وتأبى حقيقة محمد إلا أن تؤكد وتبرهن وتدلل على أنه بشر . وبلسانه هو ((أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد وتمشي في الأسواق)) .

قال :- كل ما قلته الجميع يعرفه ويفهمه . والناس ليسوا في حاجة إلى مزيد .

قلت :- هذا ما اختلف معك فيه .... فالناس في حاجة إلى المزيد والمزيد .

قال :- كيف ؟

قلت :- الناس في حاجة أن تتحول تلك المعرفة وهذا الفهم إلى حالة من المعايشة . وحالة من ((التشرب)) وتنعكس تلك الحالة على أسلوب حياتهم وطريقة تفكيرهم . ونمط مشاعرهم وأحاسيسهم . فهناك فرق كبير بين أن تقرأ عن النار وتعرف وتفهم عنها كل شيء . وبين أن تحترق بها . وفرق كبير بين أن تعرف الكثير عن الماء وما تمد الجسم من حياة وارتواء . وبين أن ترتوي بها . وتنعم بهذا الري . مع الأنبياء بصفة عامة . ومع النبي محمد - ﷺ - بصفة خاصة . أنت في حاجة أن تتقمصهم . تتمثلهم . تستحضرهم . أن يكون بينك وبينهم نوع من التواصل الدائم والمستمر . إلى الدرجة التي تجعلك تتطبع بطبعهم تتصف بصفتهم تتسم بسمتهم . تتشكل بشكلهم . تفكر كما يفكرون . تشعر بما يشعرون .

قال :- ولكن هذا أمر عسير غاية العسر . ثم كيف الوصول إليه ؟

ابتسمت له قائلا :- ليس أمرا عسيرا . لأن أي اقتراب أو دنو من هؤلاء الصفوة مهما كان ضئيلا فهو مكسب عظيم . مجرد أن تتجه وتحدد طريقك نحوهم فهذا - في حد ذاته - فوز عظيم . أما كيفية الوصول إلى هذا . فمجرد أن تصح النية ويصدق العزم . فلابد أن تصل .

صمت صديقي قليلا مفكرا ثم قال فيما يشبه الاستسلام :- الآن اقتنعت بموضوع كتابك . تعال إلى العنوان . أو اسم الكتاب . ما تقصد بشخصية محمد ؟ !

هل ستقوم بتحليل شخصيته - ﷺ - لتخرج علينا بشيء لا نعلمه ولا نعرفه وتغوص في الشعور واللاشعور . وتنقب في الوعي واللاوعي . وتأتي بالشواهد

والمواقف لتدلل أن محمدا تعرض لمشاكل ومآزق في طفولته وسني صباه ، وأن كل هذا كان له أثر في تشكيل شخصيته وتحديد علاقته بمن حوله ، وبالتالي تكوين فكره ونظرته وأرائه وأفعاله وتصرفاته ... كل هذا يتم من خلال تطبيقك لأحدث النظريات الشخصية وأراء أصحاب المدارس والمذاهب النفسية ؟!!

قلت له : أولا كفاك سخرية بي وبما أكتبه .

- أنا لا أسخر ، ولكني أتعجب .
- وما العجب في ذلك ، ألسنا متفقين على أن محمدا – ﷺ – بشر .
- لا شك في هذا .
- إذن نحن متفقان أن ما ينطبق على الشخص العادي ينطبق على محمد وأن الرسول الكريم كان يخضع ويتأثر بكل ما يتأثر به الإنسان العادي بحكم أنه في الأصل بشر .
- لا شك في هذا .. ولكن ألا ترى معي أنك لو تناولت شخصية الرسول وأخذت تعمل فيها أفكارك وتأملاتك ، وتطبق تلك النظريات العرجاء والآراء الشوهاء لعلم الشخصية وعلم النفس ، ألا ترى أن هذا غبن عظيم وظلم كبير توقعه على الشخصية ؟
- حتى لو طبقنا النظريات والآراء ، على شخصية الرسول ، فليس في شخصية الرسول ما نخجل منه ، أو نخشى أن نعرضه للبحث والدرس وما ظنك بإنسان كان كل من حوله يسجلون كل لفتة وكل همسة وكل إيماءة وكل لفظة ... يفعلون كل هذا وهم في قمة الحب والتفاني والإخلاص لنبيهم ؟

وما ظنك بإنسان كان عتاب الله – تعالى – ومراجعته له ، في قرآن يتنزل به ملك الوحي على رسول الله ، ثم يقوم الرسول بتبليغه لأصحابه بدون أدنى تغيير أو تعديل أو تحريف ، ليقرأ على الملأ ويحفظ ويتعبد به ؟ فلم

توجد شخصية من قبل – ولن توجد من بعد – أحيطت بهذا السحل الدقيق والشامل والعميق والصريح والجريء والواضح لكل جزئيات ودقائق وملواهر وخوافي حياتها سواء النبوية أو البشرية .... وإليك سحل كل أنبياء ورسل الله ، تفحصه وأدرسه وحلله كما تشاء ، فلن تخرج بعد كل هذا الفحص والدرس والتحليل بمعلومات أو أخبار ، تساعدك في تصور كامل لشخصية تامة ومكتملة ، فأنت لا تدري عن الأنبياء والرسل السابقين ماذا كانوا يأكلون وماذا كانوا يحبون ، وما هي أوصافهم الخلقية والخلقية ، وما نواحي ضعفهم وما أخطائهم .... ألخ .

بينما مع محمد – ﷺ – فأنت واجد كل ما تبتغيه وأكثر ، واجد كل ما تريده وزيادة .... محمد فتح للبشرية عالم النبوة المغلق الممنوع المحجوب ؛ لتدخله البشرية من أوسع أبوابه ، وتجول وتتجول فيه ، محمد استطاع أن يسد الفجوة الهائلة بين البشري والنبوي ، وأعطى للإنسانية نموذجا كيفية كون النبي بشرا ، أو البشري نبيا ، وكيف يتعايش الاثنان في شخص واحد معه تجد كل صفات البشري كأكمل وأتم ما يكون البشري ، معه تجد صفات النبي كأمل وأتم ما يكون النبي ، معه – وليس مع غيره – تجد التوازن والتعادل والتوافق والاتفاق بين الاثنين كأكمل وأتم ما يكون التوازن والتعادل والتوافق والاتفاق .

صمت صديقي قليلا مفكرا فيما قلت ، ثم قال : ـ إذا كان هذا هو الإطار أو النهج ، أو الطريقة التي ستتناول بها شخصية محمد – ﷺ ، فأنا أوافقك على العنوان .

قلت : ـ إذن أنت وافقتني على العنوان كما وافقتني على المضمون ؟ ـ

قال : ـ نعم . قلت : ـ وماذا تريد الآن ؟

قال : ـ أن أقرأ الكتاب . ، قلت مبتسما : قريبا إن شاء الله .